

## الأخلاق من أجل حياة طيبة



هناك أمور قد يُسمّيها بعض الناس «علماء»، وما هي بشيء، كمعرفة الأنساب، وطول سفينـة نوح (ع) وعرضـها، واسم نملة سليمـان (ع)، وهـل هي ذـكر أو أـنثـى؟ وغـير ذـلك مـمـا لا خـير في معرفـته، وموسـع عـلى العـبادـ في جـهـلهـ.

وفي «أصول الكافي» عن الإمام الصادق (ع): «لا معرفـة إـلا بـعملـ، فـمن عـرـفـ، دـلتـهـ المـعـرـفـةـ عـلـىـ الـعـمـلـ، وـمـنـ لـمـ يـعـمـلـ، فـلـاـ مـعـرـفـةـ لـهـ».

وفي «سفينة البحار» عن الإمام الكاظـمـ (ع): «أولـيـ الـعـلـمـ بـكـ ماـ لـاـ يـصـلـحـ لـكـ الـعـلـمـ إـلاـ بـهـ، وـأـوـجـهـ عـلـيـكـ مـاـ أـنـتـ مـسـؤـولـ عـنـ الـعـلـمـ بـهـ، وـأـلـزـمـهـ لـكـ مـاـ دـلـكـ عـلـىـ صـلـاحـ قـلـبـكـ، وـأـظـهـرـ لـكـ فـسـادـهـ».

وكلـ هذهـ الأـوـصـافـ تـصـدـقـ وـتـنـطـبـقـ عـلـىـ عـلـمـ الـأـخـلـاقـ، فـهـوـ بـقـوـاـدـهـ وـمـبـادـئـ يـهـدـيـ لـلـتـيـ هـيـ أـقـوـمـ وـأـسـلـمـ مـنـ السـلـوكـ وـالـأـفـعـالـ، بـحـيثـ لـاـ يـسـوـغـ الفـصـلـ بـيـنـهـمـ بـحـالـ، لـأـنـ الـعـلـمـ وـالـعـلـمـ لـاـ يـصـلـحـانـ إـلاـ عـلـىـ أـسـاسـ الـخـلـقـ الـكـرـيمـ، وـمـنـ عـرـفـ هـذـاـ الـخـلـقـ، لـزـمـتـهـ الـحـجـةـ، وـأـصـبـحـ عـنـهـ مـسـؤـلـاـ، وـمـنـ هـنـاـ، قـسـمـواـ عـلـمـ الـأـخـلـقـ إـلـىـ نـظـريـ وـعـمـليـ.

والنظـريـ هوـ الـذـيـ يـبـحـثـ عـنـ أـسـسـ الـخـيـرـ الـمـطـلـقـ وـفـكـرـةـ الـفـضـيـلـةـ مـنـ حـيـثـ هـيـ، بـغـصـنـ النـظـرـ عـنـ الـمـصـادـيقـ وـالـأـفـرـادـ، تـمـاـمـاـ كـالـبـحـثـ عـنـ الـعـبـادـةـ مـنـ حـيـثـ هـيـ عـبـادـةـ، لـاـ مـنـ حـيـثـ هـيـ صـومـ أـوـ صـلـاـةـ فـقـطـ.

وـأـيـضاـ، يـُسـمـيـ الـعـلـمـ النـظـريـ لـلـأـخـلـقـ بـفـلـسـفـةـ الـأـخـلـقـ الـعـمـليـ، فـلـاـ يـبـحـثـ عـنـ الـخـيـرـ الـمـطـلـقـ وـالـفـضـيـلـةـ كـفـكـرـةـ وـمـبـداـ، بلـ يـبـحـثـ عـنـ مـصـادـيقـ الـخـيـرـ الـتـيـ تـقـعـ تـحـتـ الـحـوـاـسـ وـالـفـضـائـلـ الـخـارـجـيـةـ، كـالـلـوـفـاءـ بـالـأـمـانـةـ وـالـإـحـسـانـ إـلـىـ الـمـعـوزـينـ، تـمـاـمـاـ كـمـاـ يـقـولـ الـفـقـيـهـ: يـحـبـ رـدـ التـحـيـةـ، وـتـحـرـمـ الـسـرـقةـ. وـعـلـيـهـ، يـكـونـ مـوـضـعـ عـلـمـ الـأـخـلـقـ النـظـريـ بـمـنـزلـةـ الـجـنـسـ الـذـيـ لـاـ يـوـجـدـ فـيـ الـخـارـجـ إـلاـ بـوـجـودـ أـفـرـادـ،

وموضوع علم الأخلاق العملي نفس المصاديق التي تحس وتطهر للعيان، كالكرم والشجاعة.

مثلاً، إذا قلنا: كلّ ما أمر به الوحي والعقل فيه خير، أو كلّ ما فيه نفع وصلاح للناس في جهة من الجهات فهو حسن، كانت هذه القضية أخلاقية نظرية بحثة وفكرة مجرّدة، وإذا قلنا: هذا الميتم أو المستشفى المجاني خير، تكون القضية عملية، مع العلم أنّ الأخلاق النظرية ليست غاية في ذاتها، بل خطوة مرحلية ينتقل منها الباحث إلى التطبيق والعمل، وهذه المرحلة التطبيقية العملية هي الهدف الأسمى لعلم الأخلاق، بل لكلّ علم على الإطلاق.

أمّا مجرّد الحفظ والفهم لما دوّنه العلماء في كُتُبِهم، أو دار في رؤوسهم، فهو كلام في كلام، تماماً كالحرف المسطور في كتاب مقيور، والفرق أنّ الذي في هذا الكتاب حبر على ورق، أمّا الحفظ، فصورة في مرآة الذهن.

والخلاصة، أنّ العلم النظري للأخلاق مجرّد معرفة، والعلم العملي سلوك، والمصلة بينهما تماماً كالصلة بين اليد والعمل بها، وبين العين ورؤيتها الطريقة.

وكما أنّ كلّاً من اليد والعين ليست لمجرّد الجمال والتناسب بين الأعضاء، كذلك المعرفة ليست لمجرد الترف وتراكم الصور الذهنية، بل للعمل من أجل الحياة الطيبة الخيرة التي يوحى بها الحبّ والعدل، ويهدي إليها الوحي والعقل. ▶

المصدر: كتاب فلسفة الأخلاق في الإسلام